الفصل الثالث

اللغة المنفتحة في القرآن الكريم

كان من أهمّ الجوانب اللغويّة الأخرى التي اخترق بها القرآن الكريم المؤسّسة الشعريّة العربيّة ثمّ ترك فيها آثاراً لا تُمحى؛ ذلك النوعُ الجديد من اللغة ذات الأبعاد المتعدّدة والطبيعة المرنة التي تترك اللفظة أو التركيب أو العبارة القرآنيّة مفتوحةً لعديدٍ من الاحتمالات.

وكانت هذه المرونة اللغوية عنصراً هامّاً في أيدي المسلمين يفهمون به القرآن في كلّ عصرٍ تِبعاً لعلوم ذلك العصر وتَقدُّم مكتشفاته العلميّة وتطوّر ظروفه الاجتماعيّة والسياسيّة والحضاريّة، وهو ما أعطى التشريع القرآنيّ، ومن ثمّ الفقه الإسلاميّ، قوّة الاستمرار على توالي العصور، وعلى تلوّن البيئات الزمانيّة والمكانيّة والثقافيّة.

وقد تنبّه القدماء إلى أهمّية هذا الجانب الإعجازيّ في لغة القرآن الكريم، وإلى تفرّد القرآن بهذا النوع من اللغة، وأنّها ليست في لغة البشر. ويورد السيوطي مجموعةً من أقوالهم في هذا الباب، منها:

وقد جعل بعضهم ذلك من أنواع معجزات القرآن، حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقلّ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر..
وذكر مقاتلٌ في صدر كتابه حديثاً مرفوعاً (لا يفقه الرجل كلّ الفقه حتّى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة)..
وأخرج ابن سعد من طريق عِكرِمة عن ابن عبّاس: أنّ عليّ بن أبي طالب ﵁ أرسله إلى الخوارج، فقال: (اذهب إليهم فخاصمهم،

ولا تُحاجِّهِم بالقرآن فإنّه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسُنّة)[1].

اللغة الشعريّة واللغة المنفتحة:

وكثيراً ما تُنسب اللغة الانفتاحيّة إلى الشعر، فيقولون حيث يجدونها إنّها "لغةٌ شعريّة". والحقّ أنّ الشعر إنّما قَبس شُعلتهَا الأولى من القرآن، وربّما من الكتب السماويّة الأخرى أيضاً .فاللغة المنفتحة أو المشعّة ذات الظلال والألوان خَصيصةٌ هامّةٌ في لغة السماء، ولا سيّما في الأمور التشريعيّة التي تحتاج إلى أن تُفهم بأكثر من طريقةٍ تِبعاً لاختلاف العصور والأمصار، وكذلك في وصف الأمور الغيبيّة، تلك التي ترتفع فوق مستوى التفكير البشريّ.

ويكاد يكون هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات مبثوثاً في آيات ما يطلق عليه مصطلح (المتشابه) من القرآن، ولكن ليس في (المُحْكَم) من آيات العقيدة والتوحيد، وقليلاً ما يَرد في آيات الأمر والنهي والإخبار.

إنّ من السهل على المفسّرين أن يختلفوا مثلاً في معنى اللفظ القرآنيّ المنفتح (الصَمَد) في سورة (الإخلاص): (اللهُ الصَمد) لأنّ معانيه المحتمَلة، على تعدّدها، لا تخرج به عن جوهر التوحيد، ولكن لا مجال للاختلاف أو لتعدّد الاحتمالات فيما يسبقه أو يليه من ألفاظٍ وتعبيرات: (أحد، لم يلد، ولم يولَد) لأنّ الأمر هنا دخل في صُلب التوحيد ولا يتحمّل الجدل أو تعدُّد الآراء، مهما توالت العصور واختلفت الأمكنة وتنوّعت الثقافات.

ولتوضيح ما أريد بـ"اللغة المنفتحة" أذكر ما وقع لي حين سمعتُ أحدهم يترجم عبارة (الله أكبر) إلى *Allah is great* فطلبت إليه؛ إذ لم أكن مقتنعاً بهذه الترجمة، أن يبحث عن عبارةٍ إنجليزيّةٍ أكثر دقّةً، فكان أن ترجمها إلى *Allah is the greatest* .

والحقّ أنّ معظم المترجمين دأبوا على ترجمة هذه العبارة الإسلاميّة الفريدة إلى إحدى هاتين العبارتين. وحين طلبت من صديقنا أن يعيد ترجمة

---

(1) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص283.

العبارتين الإنجليزيّتين، حرفيّاً، إلى العربيّة، فوجئ بأنّهما أصبحتا هكذا: (الله كبيرٌ) و(الله هو الأكبر). إنّ أيّاً من الجملتين لم تكن ترجمةً دقيقةً لـ (الله أكبر) لأنّ اللفظ (أكبر) يقابله الكلمة الإنجليزيّة *Greater* وإذن فالترجمة الصحيحة لهذه العبارة هي *Allah is greater*.

واعترض صديقنا، كما كنت أتوقّع، بأنّ هذه الكلمة الإنجليزيّة لا تأتي هكذا منفردةً من غير أن تتلوها الأداة *Than* التي تعني (مِن)، فذكّرته بأنّ الأمر كذلك في العربيّة أيضاً، كما في سائر اللغات، فنحن نقول:

أكبر من إخوته

أصغر من النملة

أفقر من جاره

أجمل من بقيّة الحيوانات

أحلى من العسل.

ولكنّ الإسلام ترك العبارة هكذا مفتوحةً، مع مخالفتها لأعرافنا اللغويّة، ليتخيّل قارئها بعدها ما شاء من أشياء:

الله أكبر... من كلّ شيء

الله أكبر... من أيّ حزن

الله أكبر... من أيّ فرح

الله أكبر... من أيّ همّ

الله أكبر... من أيّة شهوة

الله أكبر... من أيّ آخذٍ

الله أكبر... من أيّ مُعطٍ

الله أكبر... من أيّ ظالم... إلخ.

ولو قال (الأكبر) أو (كبير) بدلاً من (أكبر) لانغلقت العبارة وتوقّفت عند انتهاء ألفاظها ولم تُتِح لنا أيّة مسافةٍ للمناورة يتنفّس فيها خيالنا أو تتحرّك خلالها أفكارنا.

والغريب أنّ العرب والمسلمين أنفسهم، وبحكم الألفة، لم يعودوا يرون في هذه العبارة، وهي الأشهر في العالم ارتباطاً بالدّين الإسلاميّ، ما يخرج بها عن العرف اللغويّ عندهم، حتّى غدتْ في مفهوم المسلمين أنفسهم لا تعدو أن تكون بمعنى (الله كبير) أو (هو الأكبر)، فيردّدونها باستمرار بوصفها عبارةً مغلقة، لا عبارةً متميّزةً منفتحةً تذكّرهم بأنّ الله قد ترك لهم أن يملأوا الفراغ بعدها بما يتطلّبه واقعهم وتمليه مشكلات حياتهم اليوميّة، فيستندون إلى هذه العبارة مؤكّدين لأنفسهم أنّه تعالى أقوى وأعظم وأرحم وألطف ممّا وممّن يواجهونه في حياتهم من مصاعب ومغرياتٍ وأفراحٍ وأتراح. ولن نلوم المترجمين بعد ذلك، وقد تحولت العبارة في أذهان المسلمين إلى عبارةٍ مغلقة، لو ترجموها خطأً إلى أيٍّ من ذَينِك اللفظين. لقد أفقدتْنا الألفةُ حقّاً قدرتَنا على الإمساك بأجمل ما في هذه العبارة من جدّةٍ وتفرّدٍ وانفتاح.

اللغة المنفتحة في الكتب السماويّة:

لم يعرف العرب هذا النوع من "اللغة الشعريّة" قبل الإسلام، وكلّ ما في الشعر الجاهليّ من ثنيّاتٍ لغويّةٍ تدعو إلى إعمال الفكر وتقليب الخيال كان بعضَ الكلمات الوحشيّة التي قد تتطلّب العودة إلى القواميس لشرحها، أو ألفاظاً ومصطلحاتٍ جاهليّةً مرتبطةً بأحداثٍ محلّيّةٍ أو ظواهر بيئيّةٍ نحتاج معها إلى إلمامٍ ببيئة الجزيرة العربيّة وتاريخها وجغرافيّة أرضها. ولكنّنا لن نجد في هذا الشعرِ أيّة ألفاظٍ أو تعبيراتٍ يمكن أن تُفهم بأكثر من وجه.

أمّا النصوص السماويّة الأخرى، التوراة والإنجيل، فمن السهل أن نجد فيها مثل هذا النوع من اللغة المنفتحة، ولكنّنا عاجزون عن الخروج بحكم موضوعيٍّ سليم عنها؛ إذ إنّ معظم نصوصها التي بين أيدينا يرويها بشرٌ، أو أنبياءٌ على أبعدِ تقدير، وتندر فيها النصوص التي يتحدّث فيها الله بنفسه، فهي إذن، على الأغلب، ليست لغة السماء بحرفيّتها، بل تفسيرٌ لها في أفضل الأحوال.

ثمّ إنّنا، من ناحيةٍ أخرى، لا نملك تلك النصوص السماويّة بلغتها الأصليّة التي أُنزِلت فيها، فالترجمة، مهما كانت دقيقةً، ما هي إلّا تفسيرٌ شخصيٌّ يعبّر، بمحدودية، عن وجهة نظر المترجِم فيما يترجمه، كما أنّ الترجمات كثيراً ما تضطرب بين يدَي المترجم، ولا سيّما إذا كان من الدقّة والموضوعيّة والإخلاص بحيث يعجز عن وضع ما غمُض عليه من النصّ في لغةٍ علميّةٍ دقيقةٍ واضحة، فيعمد إلى أسلوبٍ محيَّرٍ يُشيع في الترجمة غموضاً يقترب بها ممّا قد نظنّه اللغة المنفتحة.

أضف إلى ذلك ما تسبّبه الفوارق النحويّة واللفظيّة والثقافيّة بين اللغات من صعوبةٍ أمام من يترجمها وهو يحاول أن ينقل المعنى من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى لها قوانينها وثقافتها وأعرافها المختلفة.

إنّ من حقّنا مثلاً أن نتردّد في الحكم على عبارةٍ توراتيّةٍ غامضةٍ مثل "أسّستَ حَمْداً بسببِ أضدادِكَ"(2) بأنّها عبارةٌ منفتحةٌ، إذا عرفنا أنّ العبارة نفسها في النسخة الإنجليزيّة جاءت في غاية الوضوح: Thou ordained strength because of thine enemies(3).

وترجمتُها – وهي ترجمةٌ شخصيّةٌ لي أيضاً لها ما للترجمات الشخصيّة من مساوئ – : "لقد أكسبكَ أعداؤكَ قوّةً"(4).

ونحن لا نواجه مثل هذه المشكلة مع القرآن الكريم الذي يتكلّم الله تعالى فيه بنفسه من أوّل آيةٍ فيه إلى آخر آية، ثمّ إنّ بين أيدينا نصّه الأصليّ الأوّل كما هو، من غير المرور بلغةٍ وسيطةٍ أو أكثر كما هو الحال مع بقيّة الكتب السماويّة.

---

(2) مزامير: 8: 2. نسخة دار الكتاب المقدّس في العالم العربيّ، 1981.

(3) انظر:
- *The Holy Book,. King James Version. Collins' Clear-Type Press, London:1950*

(4) جاءت ترجمة العبارة في نسخة (دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، لبنان: 2004) هكذا: "**تعزّزتَ في وجهِ خصومِك**" وهي أقلّ غموضاً، كما هو واضح، من عبارة النسخة العربيّة الأخرى، ولكنّها، أيضاً، أكثر غموضاً من النصّ الإنجليزيّ.

obeikan.com

اللغة المنفتحة في الحديث النبويّ:

وأغلب الظنّ أن لغة السماء، في أيّ كتابٍ نزلت، وربّما لغة الأنبياء في بعض الأحيان، لا بدّ أن تمتاز بهذا الأسلوب المنفتح، لأسبابٍ عديدةٍ لعلّ أهمّها الحفاظ على استمرار النصّ الدّيني، الإلهيّ والنبويّ، حيويّاً وفاعلاً في رحلته الطويلة والبعيدة وهو يخترق الأزمنة والأمكنة والثقافات المختلفة.

ومن السهل أن نجد في الأحاديث النبويّة الكثير من الأمثلة على ذلك، وليس بعيداً عن ذاكرتنا حديث صلاة العصر في بني قريظة الذي اختلف الصحابة في تفسيره، والرسول ما يزال بين ظهرانَيهم، فنفّذوه كلٌّ كما فهمه، ثم لم يعترض الرسول ﷺ على أيٍّ من تفسيراتهم المتباينة:

- "عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبيّ ﷺ لنا لمّا رجَع من [غزوة] الأحزاب: لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلّا في بني قُريظة [منطقة اليهود في المدينة ممّن خانوا العهد وطعنوا المسلمين في الظهر أثناء المعركة]. فأدرك بعضُهم العصرَ في الطريق فقال بعضُهم: لا نصلّي حتّى نأتيَها [أي لا نصلّي إلّا في منطقتهم حتّى لو فاتنا وقت الصلاة]، وقال بعضُهم: بل نصلِّي، لم يُرَد منّا ذلك [أي أراد الرسول استعجالنا للوصول إليهم وليس تأخير صلاة العصر عن وقتها]. فذُكِر [ذلك] للنبيّ ﷺ فلم يُعنِّف واحداً منهم"[5].

لقد كانت موافقة الرسول ﷺ لهم، على تباعد تفسيراتهم، إشارةً واضحةً إلى وجود هذا النوع من اللغة المرنة في النصّ المقدّس، إلهيّاً كان أم نبويّاً، وكان سكوته عنهم تأكيداً منه ﷺ على المسلمين بأهمّية وجود هذا النوع من اللغة في التشريع الدينيّ، والذي ينتج عنه بالضرورة اختلاف تفسيرهم لهذه اللغة، ومن ثمّ اختلافٌ في فهم بعض الأحكام الفقهيّة، كما حدث بعد ذلك حقّاً على مدى التاريخ الإسلاميّ، ممّا يدخل فيه بعد ذلك جوانب فقهيّةٌ انفتاحيّةٌ هامّةٌ عُرفت بعلوم (المُحكَم والمتشابه) و(المُجمَل والمُبيَّن) و(العامّ والخاصّ).

وكذلك انتقلوا في تفسير النصّ الدينيّ من خصوص اللفظ أو المناسبة

---

(5) البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، ج2، ص15.

obeikan.com

إلى عموم المعنى، وربّما العكس، بحيث استطاعت الشريعة الإسلاميّة أن تلبّي مقاصد الحياة المتجدّدة، فظلّت بهذا قويّةً وحيّةً ومتفاعلةً مع الأحداث والحياة المتطوّرة على مرّ الزمان وتباعد المكان واختلاف الطبائع والثقافات.

انفتاحيّة الأسلوب الفكريّ للقرآن:

ولا تقتصر الصفة الانفتاحيّة في القرآن الكريم على اللفظ أو العبارة أو الجملة، بل تشمل البناء التعبيريّ والفكريّ الكامل للقرآن الكريم.

لقد كان من أهمّ أسرار استقطاب القرآن لأقلام الكتاب والدارسين والمحلّلين على مدى القرون، منذ نزوله من السماء، العنصر الانفتاحيّ الفكريّ فيه. ويقوم عرض القرآن الكريم لكثيرٍ من القصص والأحداث على هذا العنصر المنفتح بحيث حافظ على باب التأويلات والاجتهادات والتحليلات للأفكار والأحداث مفتوحاً على الزمن.

فحين يتحدّث القرآن الكريم، مثلاً، عن العدد الحقيقيّ لأصحاب الكهف يترك ذلك العدد متحرّكاً سابحاً في فضاء الزمن من غير أن يضع له حدوداً نهائيّة. فهل كان عددهم ثلاثةً أم خمسةً أم سبعةً، أو أكثر أو أقلّ؟

- ﴿سيقولون ثلاثةٌ رابعُهم كلبُهم ويقولون خمسةٌ سادسُهم كلبُهم رجماً بالغيبِ ويقولون سبعةٌ وثامنُهم كلبهم قلْ ربّي أعلمُ بعِدّتِهم ما يعلمُهم إلّا قليلٌ﴾ [الكهف: 22].

وكان من المتوقّع - بشريّاً - في هذه الآية أن تَختصر القول فيهم، فتَذكر عددهم وتريحَنا من تخمينات المخمّنين، ولكنّها، بعد أن قدّمت هذا العرض المفصّل من التخمينات، تركتنا من غير إجابةٍ نهائيّةٍ عن العدد الحقيقي لأفراد تلك العصبة.

هذا الأسلوب يميّز بوضوحٍ وإلحاحٍ الخطّ العامّ لعرض الفكرة في القرآن الكريم، كما في الآيات التالية:

- ﴿وما قتلوه وما صلبوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهم﴾ [النساء: 157].

obeikan.com

فلا تشرح لنا الآية كيف شُبِّه المسيح لهم وماذا حصل بالضبط ساعة الصّلب؟

- ﴿والزّيتونَ والرُّمّانَ متشابهاً وغيرَ متشابهٍ﴾ [الأنعام: 141].

فلم تفصّل الآية طبيعة اجتماع التشابه وعدم التشابه في الوقت نفسه؟

- ﴿فأسْرِ بأهلِكَ بقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفِتْ منكمْ أحدٌ إلّا امرأتَكَ إنّه مُصِيبُها ما أصابَهم﴾ [هود: 81].

فلم تحدّد الآية ما إذا كانت امرأة لوطٍ من الباقين بعد لوطٍ، أم من السّارِين معه ممّن التفتوا وراءهم، أم أنّها هلكت لسببٍ آخر؟

- ﴿يومَ نطوي السّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104].

فاختلف المفسّرون: ما حقيقة السجلّ وما طبيعة الكتب وكيف يكون الطيّ؟

إنّ هذا الأسلوب الانفتاحيّ للآيات قد جنّبها التسطّح والانبساط والمحدوديّة ومنحها عمقاً لا قرار له من التقديرات والتصوّرات والتأويلات المحتمَلة.

وبإمكاننا تقدير أهمّية هذا الجانب الأسلوبيّ لو توقّفنا عند أيّ نصٍّ نثريٍّ بشريٍّ، من مقالةٍ أو رسالةٍ أو قصّة أو غير ذلك، لنرى إلى أيّ مدىً يمكن أن ينفتح للتأويلات، إن حدث أن كان هناك أيّ فسحةٍ للاختلاف على تفسيره، وكم من السنين يمكن أن تمتدّ تلك المحاولات قبل أن تتوقّف لتستقرّ في النهاية على رأيٍ أو رأيين، ثمّ لا شيء بعد ذلك؟

الفرق بين اللغة المنفتحة واللغة الجميلة:

ولْنقف الآن عند بعض نصوص الشعر الجاهليّ لنحاول أن نتبيّن الفرق، في هذا الجانب، بين لغته ولغة القرآن. وقد فضّلنا أن نقف عند أبياتٍ اختارها قبل أكثر من ألف عامٍ الناقدُ الذوّاقة ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابه الرائد "الشعر والشعراء" على أنّها بعض أجملِ ما قاله شعراء الجاهليّة:

- كأنّ قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً

لدى وكرِها العُنّابُ والحَشَفُ البالي

- مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ معاً

كجُلمودِ صخرٍ حَطّهُ السيلُ مِن عَلِ

- له أيطَلا ظبْيٍ وساقا نَعامةٍ

وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ

- وقد طَوّفتُ في الآفاقِ حتّى

رضِيتُ مِن الغنيمةِ بالإيابِ

- أجارتَنا إنّ المَزارَ قريبُ

وإنّي مقيمٌ ما أقام عَسيبُ

امرؤ القيس (ت80 ق.هـ)

كِليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصبِ

وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

النابغة الذبيانيّ (ت18 ق.هـ)

أيّتها النفسُ أجمِلي جَزَعا

إنّ الذي تَحذرينَ قد وقعا

أوس بن حجَر (ت2 ق.هـ)

والنفسُ راغبةٌ إذا رغّبْتَها

وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنعُ

أبو ذؤيب الهُذَليّ (ت27هـ)

obeikan.com

يُغضي حياءً ويُغضَى مِن مَهابَتِهِ

فما يُكلَّمُ إلّا حينَ يبتسمُ

المتوكّل الليثيّ (ت85هـ)

أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا

وسالتْ بأعناقِ المَطِيِّ الأباطِحُ

كُثيِّر عَزّة (ت105هـ)

غَيّضنَ مِن عَبَراتِهِنّ وقُلنَ لي

ماذا لقِيتَ من الهوى ولَقِينا

جرير (ت110هـ)

والشيبُ ينهضُ في الشبابِ كأنّه

ليلٌ يَصيحُ بجانبيهِ نهارُ

الفرزدق (ت110هـ)

هل تستطيعون أن تكتشفوا في أيٍّ من هذه الأبيات، على جمالها ورقّتها وتفوّقها بين أشعار عصرها، لفظاً واحداً، أو تركيباً، أو تعبيراً، يحتمل، في سياق البيت، أكثر من معنىً، أو أكثر من إعرابٍ واحد، بحيث يُغْني هذا التعدّدُ المعنويّ، أو الإعرابيّ، المعنى العامَّ للبيت، ويمنحه أبعاداً إضافيّةً، ومرونةً مُخصِبةً، وقابليّةً للتطوّر والتكيّف مع الزمن والأحداث والأذواق؟

لا أظنّكم ستنجحون في هذا، فقد أخفقت أنا قبلكم، ليس في هذه الأبيات وحدها، بل في كلّ ما قرأته من الشعر الجاهليّ.

ومع أنّ الشعر هو المكان الذي نظنّ أو نتوسّم فيه اليوم وجود مثل هذه الألفاظ أو التعبيرات المشعّة أو ذات الأطياف الموحية، أو المنفتحة، ليحمل لنا أكثر من معنىً، ويؤوَّل بأكثر من وجه، فإنّنا من غير شكٍّ نفتقدها تماماً في الشعر الجاهليّ، وظللنا نفتقدها في الحقب الشعريّة التي تلته حتّى الآن.

obeikan.com

نعم، هناك الأبيات الجميلة المتفوّقة بصورها وأفكارها ولغتها وموسيقاها، ولكن علينا أن نفرّق بين الجميل ذي الأطياف الموحية، والمنفتح أو المتجدّد.

إنّ خير مقياسٍ لكشف العبارات أو الألفاظ ذات الأبعاد المتعدّدة هو الإعراب. فكلّما زادت احتمالات إعراب الكلمة أو العبارة ازداد توهّجها وتعدّدت معانيها وغَنِيت بالظلال والإيحاءات والألوان. ولا أجد في الأبيات التي أوردتُها، على جمالها، أيّة عباراتٍ أو ألفاظٍ تتمتّع بأكثر من احتمالٍ إعرابيٍّ واحد، كما لا أجد ألفاظاً تحتمل أكثر من معنىً.

ولعلّ الرشيد كان يبحث في الشعر عن شيءٍ يذكّره بلغة القرآن المنفتحة حين قال مرّةً للمفضّل الضبّيّ:

"اذكُر لي بيتاً جيّدَ المعنى يحتاج إلى مُقارَعَةِ الفِكر في استخراجِ خَبيئه، ثمّ دعْني وإيّاه"(6).

وكان خيرَ ما عند الضبّيّ لتلبية طلب الرشيد هذا البيتُ لجميل بن مَعْمَر (ت82هـ):

ألا أيّـهـا الـرَكْـبُ الـنِـيـامُ ألا هُـبّـوا

أُسائلُكمْ: هـل يـقـتـلُ الـرجـلَ الـحُـبُّ؟

وواضحٌ أن البيت، على جماله ورقّته، يخلو من أيٍّ من هذه الخصائص التي نتحدّث عنها في اللغة المنفتحة، فلا أطياف من المعاني الإضافيّة تنداح حول المعنى المحوريّ للبيت، ولا مساحة لمزيدٍ من الاحتمالات الإعرابيّة التي يمكن اقتراحها لألفاظه وجمَله، مع أنّ البيت لشاعرٍ عاش بعد فترةٍ من نزول القرآن كافيةٍ لأن يتأثّر به فيغنى شعره بهذه اللغة المنفتحة.

---

(6) ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله. **الشعر والشعراء**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. القاهرة: دار الحديث، 1996، ج1، ص73 .

الفرق بين الانفتاح والغموض:

وخليقٌ بنا أن نفرّق هنا بين اللغة المنفتحة أو المتجدّدة أو المتعدّدة الأبعاد، والغموض.

فهذا النوع الأخير كثيرٌ في شعرنا العربيّ، قديمه وحديثه، وينتج غالباً عن غرابة الألفاظ ووحشيّتها، وأحياناً عن تعقيدٍ في التركيب اللغوي، وأحياناً أخرى عن جهلنا بالبيئة التي نبعت منها أفكار الشاعر أو صوَرُه. وقد حدث أن "قُرئ يوماً على الأصمعيّ في شعر أبي ذؤيبٍ الهُذَليّ:

بـأسـفَـلَ ذاتِ الـدَيـرِ أُفْـرِدَ جَـحْـشُـهـا

فقال أعرابيٌّ، كان يحضر المجلسَ، للقارئ: ضُلَّ ضَلالُك، إنما هي "ذاتُ الدَبْرِ" ـ بالباء ـ وهي ثَنِيَّةٌ عندنا"[7].

وفي هذا ما يساعدنا على تلمّس الفرق بين وضوح اللغة القرآنيّة، مع تعدّد أبعادها، وغموض اللغة الشعريّة، أحياناً، مع اقتصارها على بعدٍ واحد، إن كان لها بُعدٌ على الإطلاق.

لقد تجاوز القرآن الكريم الشعر واللغة الأدبيّة لعصر نزوله، ففاجأ العرب بلغةٍ جديدةٍ تستجيب لتقلّب العصور، وتَجدُّد الأحداث، واختلاف الأنفس، وتطوّر الفكر البشريّ وثقافتِه وعلومه واكتشافاته عبر القرون، فيأخذ الناس منه، كلٌّ في زمانه وبيئته ومكانه، ما تتّسع له مفهوماتهم وثقافتهم، ويناسب عصرهم ومَصرهم وفكرهم وحاجاتهم، من غير تناقضٍ في هذه المفهومات، على تباينها واختلافها.

وما تبع نزولَ القرآن الكريم من تأثيرٍ فنّيٍّ في الشعر العربيّ، ولا سيّما شعر القرن الهجريّ الثاني ومابعده حتى اليوم، واتجاه هذا الشعر نحو لغةٍ أكثر إيحائيّةً، كان ثمرةً أخرى من ثمار تفاعل لغة القرآن مع لغتنا، وتأثيراتها المخصبة في آدابنا، حتى حسب أناسٌ أن الأصل في هذه الخصيصة هو

---

(7) ابن قتيبة، أبو محمّد عبد الله. **الشعر والشعراء**، مرجع سابق، ج1، ص83.

الشعر، فقالوا إنّ لغة القرآن لغةٌ شعريّة، وكان الأحرى بهم أن يدركوا أنّ لغة الشعر هي التي تأثّرت بلغة السماء فأخذت عنها طيفيّتها وتلوّنها وانفتاحها.

ومع هذا تبقى لغة الشعر في جانبٍ ولغةُ القرآن في جانبٍ آخر، فلا تلتقيان في هذه الخصيصة الفنّية أبداً.

ولا شكّ في أن الغنى القرآنيّ بهذا النوع من الألفاظ والوحدات اللغويّة ذات الأبعاد المتعدّدة فتح أمام العرب أبواباً واسعةً لإغناء أدبهم وشعرهم بهذه اللغة الثريّة الجديدة.

ولقد رأينا كيف كان الشعر الجاهليّ يفتقر إلى هذا الجانب الإيحائيّ، على جماله وتفوّقه، لغويّاً وبلاغيّاً وفكريّاً، فأحدث نزول القرآن فيه هزّةً وانقلاباً، ودفع به أشواطاً إلى الأمام، حتى وجدنا الشعراء ينتقلون من اللفظ الجميل المجرّد، كما كان عند الجاهليين، إلى اللفظ الجميل ولكن الغنيّ بالأطياف والأبعاد والإيحاءات بعد الإسلام، مع تأكيدنا على التفريق بين اللغة الشعريّة "الموحية" واللغة القرآنيّة "المنفتحة". ولننظر في هذه الأبياتِ المشهورة للبحتريّ (ت284هـ) فهي نموذجٌ واضحٌ لذلك التغيّر الذي طرأ على الشعر العربيّ:

وقد نبّه النيروزُ في غسَق الدجى
أوائلَ وَردٍ كُنّ بالأمسِ نُوّما
يفتّقُها بَرْدُ الندى فكأنّه
يبثُّ حديثاً كان أمسِ مُكتَّما
ومِن شجرٍ رَدّ الربيعُ لِباسَهُ
عليه، كما وشَّيتَ وَشياً مُنَمْنَما
أَحَلّ فأبدى للعيونِ بَشاشةً
وكان قَذىً للعَينِ إذْ كان مُحْرِما

ورقَّ نســـيمُ الـريـحِ حـتّـى حَـسِـبْـتَـهُ

يَـجـيءُ بـأنـفـاسِ الأحـبّـــةِ نُـعَّـمـــا

إنّ ألفاظاً وتعبيراتٍ مثل (النيروز، غسق الدجى، أوائل ورد، نوّم، يفتّقها، برْد الندى، يبثّ حديثاً، مكتّم، وشيٌ منمنم، أحلَّ، مُحرِم، رقّ نسيم الريح، أنفاس الأحبّة، نُعَّم) ترتفع بالأبيات إلى مستوىً لغويٍّ إيحائيٍّ جديدٍ لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام، ولكنّها لن تصل أبداً إلى مرتبة "اللغة المنفتحة" التي ظلّت دائماً مقتصرةً على القرآن الكريم وحده.

الفرق بين الانفتاح والإيحاء:

إنّ "الإيحائيّة" في الشعر وتعدّد أبعادها وغناها بالظلال والأطياف، مهما بلغت، لا ترقى إلى درجةٍ يمكن معها لكلّ عصرٍ أن يكتشف فيها ما لم تكتشفه العصور التي سبقته، كما يحدث حقّاً مع لغة القرآن الكريم.

إنّ ما نفهمه اليوم من شعر البحتريّ أو المتنبّي أو أبي تمّام، على تعدّد طيوف لغته وإيحاءاتها، لا يمكن أن يزيد عمّا فهمه معاصروهم من هذا الشعر. يأتي هذا خلافاً لما هو الأمر مع لغة القرآن الكريم، التي ما تزال أسرارها ومعانيها تتكشّف لنا يوماً بعد يوم مع تكشّف أسرار العلوم الطبيعيّة والحقائق الإنسانيّة، ومع تطوّر الفكر البشريّ وأدواته النقديّة.

فإذا كانت لغة القرآن متعدّدة الجوانب، ويمكن أن تُفهم بأكثر من طريقة، من غير أن يؤدّي هذا التعدّد إلى التناقض أو التباعد بين المعاني المختلفة، فإنّ لغة الشعر، حتّى إن اتّجهت إلى التعبير عن المعنى المراد بطريقةٍ إيحائيّةٍ غير مباشرةٍ، خلافاً للغة النثر، لن تقودنا إيحائيّتها في النهاية إلى أكثر من معنىً واحدٍ أراده الشاعر ولكنّه تعمّد أن يقدّمه لنا داخل غطاءٍ فنّيٍّ يجعله أكثر إثارةً وإمتاعاً ونحن نبحث تحته عن المعنى المراد.

وانظر كيف يعبّر عمر أبو ريشة عن مشاعر الخيبة والألم واليأس وهو يرثي صديقاً شاعراً سبقه إلى العالم الآخر:

وبـيـنَ جَـنْـبَـيـــهِ آمـــالٌ مُـبـعـثَـــرةٌ

تـكـادُ، لـولا بـقـايـا الـصـبـرِ، تـنـتـحـرُ

كـانـت لـه فـي هـضـابِ الـشـرقِ ألـويـةٌ

نَـسْـجُ الـكـرامـةِ مـعـقـودٌ بـهـا الـظَـفَـرُ

فالشاعر ينظر إلى نهاية زميله الراقد تحت التراب فلا يرى فيها، وشمسُ العمر توشك على الأفول، إلّا صورةً لنهايته الموشكة وقد تنكّر له الزمن والحياة وتحطّمت آماله العريضة على صخرة الموت المحتوم، فيحسّ بهذه الآمال وكأنّها توشك أن تنتحر، لولا بقيّةٌ من الصبر، وقد كان يوماً يحمل رايات النصر التي نسجتها يد الكرامة والإباء.

أترون كيف عبّر الشاعر بطريقةٍ غير مباشرةٍ عن معنىً مباشرٍ: اليأس ممّا آلت إليه حياته، يأساً يقترب به إلى درجة الانتحار، لولا بعض الصبر والإيمان، وقد كان يوماً في مقدّمة الصفوف يحمل شعلة المجد ويقود ركب أمّته نحو العلاء.

لقد فضّل أن ينسحب من جزءٍ من المشهد فيزيح آلامه عن كتفيه ليرمي بأثقالها على آماله، فآماله الآن هي التي ستنتحر، وليس هو، ثمّ فضّل أن يتواضع فيواري "الأنا" عنده خلف الرايات المحمولة، فلا يتحدّث إلينا صراحةً عن أمجاده وكرامته "هو" وإنّما هي كرامة الأعلام التي رفعها التي كانت المروءة والإباء لُحمتها وسَداها.

وإذن فلا تعدّد في المعاني، إنّما هو معنىً واحدٌ نجح الشاعر في إلباسه ثوباً من الشفافية والألوان حين عبّر عنه بطريقةٍ ملتويةٍ وذكيّةٍ ليس لها صلةٌ على أيّة حالٍ بما نحن بصدده من الانفتاح اللغويّ.

أمّا ما يُسمّى اليوم بشعر الحداثة، بما فيه من غموضٍ يصل إلى حدّ الإبهام، وتعمُّد شعراء القصيدة الحديثة أن يخرجوا في قصائدهم عن المنطق والواقع والعقل ليقدّموا لنا في "قصيدتهم الكلّية" خيوطاً متشابكةً من الألغاز والهلوسة اللغويّة التي لا تصل بسفينة القارئ إلى أيّ مرفأ، فهذا لا يدخل من قريبٍ أو بعيدٍ في باب الانفتاح اللغويّ.

وفي كتابي "حركة الشعر الحديث" الذي صدر قبل أكثر من ثلاثة عقودٍ حاولت أن أضع أصابعي على مشكلة الضبابيّة في شعرنا الحداثيّ، منطلقاً من الواقع الذي يعيشه هؤلاء الشعراء، فقلت في فصل (القصيدة الحديثة أو الكلّية):

يحسّ الشاعر الحديث بصدمةٍ تجاه خلوّ العالم من حقيقةٍ عليا يلتجئ إليها، بعد أن يئس من إيجاد حقيقةٍ سفلى في الواقع الذي يعيشه. إنّ الشاعر يمدّ يده نحو المطلق ليمسك بالحقيقة، أو ليُوهمنا بأنّه يريد تقديمها لنا، ولكنّ الحقيقة ما تلبث أن تفرّ من يده - ومن أيدينا - بعيداً، فلا نصل معه أخيراً إلّا إلى الرمز والمجهول.. فإذا كنّا في مجتمع الذرّة والفكر المعقّد والضياع والقلق والتمزّق، فهذا لا يستدعي أن يكون الأدب كذلك حتّى يكون ممثِّلاً لعصره حقّاً. إنّ الإنسان يبحث دائماً عمّا يفتقده لا عمّا هو هاربٌ منه: في الجفاف يبحث عن المطر، وفي الصخب عن الهدوء، وفي البرد عن الدفء.. إنّه يبحث إذن، وسط التعقيد والضياع والتمزّق، عن البساطة والوضوح والتآلف. إنّ النفس الإنسانيّة المعاصرة، التي تعاورتها تعقيدات العصر، ولاكتها أحداثه بشراسة، ما زالت تبحث، في الفنّ خاصّةً، عن الخلاص الرّوحيّ الذي ينجو بها، على أجنحة الوضوح والبساطة والاستقامة التعبيريّة، من كلّ ما يحيط بها من ظلامٍ وتعقيدٍ وتشتّت، وهي لن تجد ذلك في القصيدة الكلّية بصورتها الحاضرة[8].

إنّه إذن الانفتاح وليس الغموض ما نتحدّث عنه هنا ونحاول أن نضع أيدينا عليه في لغة القرآن الكريم.

بصيرة عمر رضي الله عنه وكشوف الإعجاز العلميّ:

هذه اللغة السماويّة المرنة، ذات الأبعاد المتعدّدة، من شأنها أن تستمرّ حيّةً مع العصور، فتكتشف فيها الإنسانيّةُ كلّ يوم ما لم يكتشفه السابقون من معانٍ لم

(8) ساعي، أحمد بسّام. **حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية**، مرجع سابق، ص154-155.

تسمح حقائق عصرهم ومعارف علمائهم بإظهارها، وهكذا يفهمها كلّ جيلٍ، وربما أهل كلّ أرضٍ أو ثقافة، تبعاً لفكرهم ومكتشفاتهم وعلوم عصرهم.

ويجب أن أعترف بأنني لم أدرك، إلّا متأخّراً، الحكمة من منع عمر بن الخطّاب الناس، في مواقف مشهودةٍ عديدةٍ له، من تفسير القرآن أو السؤال عن معانيه، إلى حدّ ضرْبِهم وجلدهم وحبسهم(9).

فأن تضع تفسيراً للقرآن في تلك الفترة النبويّة/ الصحابيّة يعني -بمفهومنا القاصر- أن يكون بين أيدينا كنزٌ من المفاتيح الذهبيّة للدخول إلى عالم الأسرار اللغويّة للقرآن الكريم - ولكنه في عيني رجلٍ يملك بصيرة عمر ﵁ يعني أن تغلق على الناس عقولَهم بعد ذلك، وتحُدّ من اجتهاداتهم واكتشافهم لأسرار القرآن ومعجزاته، وهو الكتاب الذي "لا تنقضي عجائبه" -كما أنبأنا الرسول ﷺ-.

ومن سيجرؤ، حتى في القرن الهجريّ الثاني، أن يقترح تفسيراً جديداً لأيّة آيةٍ لو كان قد سبق أن وُضع لها تفسيرٌ آخر في القرن الإسلاميّ الأوّل، وفي عصر صحابيٍّ جليلٍ وكبيرٍ مثل عمر ﵁، ولا سيّما إذا كان عمر قد سمع هذا التفسير ثمّ سكت عنه؟

إنّ اكتشافات الإعجاز العلميّ الضخمة اليوم، وقد ظلّت خفاياها مختبئةً تحت أجنحة هذه اللغة المنفتحة قروناً طويلة، ما هي إلّا ثمرةٌ واحدة من ثمار هذه الخصيصة اللغويّة لكتاب الله، وهي أيضاً من ثمار حفاظ الصحابة الكرام على القرآن الكريم غير مشروحٍ أو مفسَّر.

وهكذا يخرج علينا العلماء اليوم بمئاتٍ من الحقائق العلميّة أثبتها القرآن

---

(9) عن أبي العَدَبَّس قال: "كنّا عند عمرَ بنِ الخَطّابِ ﵁ فأتاه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما "**الجَوارِ الكُنَّسِ**"؟ فطَعنَ عمرُ بمِخْصرةٍ معه (أي عصاً) في عِمامةِ الرّجل فألقاها عن رأسِه، فقال عمرُ: أحَروريٌّ؟ والذي نفْسُ عمرَ بنِ الخطّابِ بيده، لو وجدتُكَ محلوقاً (أي حليق الرأس) لأنْحَيتُ القَمْلَ عن رأسِك (أي قطعت رأسك)". السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج1، ص433؛ وانظر رواياتٍ عديدةً عن عمر ﵁ في هذا الباب في: السيوطيّ، جلال الدين. **جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل**. جمع وترتيب: أحمد عبد الجواد وعبّاس أحمد صقر. دمشق: مطبعة محمّد هاشم الكتبيّ، 1981، ج2، قسم المسانيد، الصفحات 143-145.

الكريم قبل أربعة عشر قرناً، ثم لم يفهمها العلماء والمفسّرون على مرّ العصور، أو بتعبيرٍ أصحّ: لقد فهموها، ولكن بقدر ما أتاحته لهم ثقافةُ عصرهم، بحيث قدّم لهم هذا الفهمُ الجرعةَ التي كان تحتاج إليها معدةُ زمنهم من معرفةٍ بكتاب الله، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ.

وكان على الأجيال المسلمة أن تنتظر قرناً وراء قرنٍ لتتكشّف لها حقائق الإعجاز الخفيّةُ في القرآن الكريم واحدةً إثر أخرى. وما يزال مسلسل الكشف مستمرّا، وسيظلّ حتى قيام الساعة.

ولننظر، على سبيل المثال، في تفسير القدماء لإحدى هذه الآيات العلميّة، لتكون بين يدي بحثنا نموذجاً لما حدث لمئات الآيات الأخرى. يقول تعالى:

- ﴿وترى الجبالَ تحسَبُها جامدةً وهي تمرُّ مَرَّ السحاب﴾ [النمل: 88].

هذه إحدى الآيات المشهورة في مجال الإعجاز العلميّ للقرآن، يثبت القرآن الكريم فيها، منذ أربعة عشر قرناً، دوران الأرض، في وقتٍ كان الناس سيستخفّون فيه بمن يقول بذلك، أو حتّى من يقول بكرويّتها، أو ربّما يقاتلونه إلّا أن يعود عن هذا القول.

فكيف كان لجيل تلك الفترة وما تلاه من أجيال، قبل اكتشاف كرويّة الأرض ثم اكتشاف دورانها بعد ذلك، أن يفهموا الآية؟

لنقف مع القرطبيّ في تفسيره الجامع ونستمع إلى خلاصته المركّزة لفهم القدماء لهذه لآية. يقول القرطبيّ:

قال القتيبيّ: وذلك أنّ الجبال تُجَمَّع وتُسيَّر (يوم القيامة) فهي، في رؤية العين، كالقائمة، وهي تسير..

قال القشيريّ: وهذا يومَ القيامة، أي هي لكثرتها كأنّها جامدة، أي واقفةٌ في مرأى العين، وإن كانت في أنفُسِها تسير سيرَ السحاب، والسحابُ المتراكم يُظَنّ أنه واقفٌ وهو يسير، أيّ تمرّ مرَّ السحاب حتّى لا يَبقى منها شيء، فقال الله تعالى: ﴿وسُيِّرتِ الجبالُ فكانت سرابا﴾.

ويقال: إنّ الله تعالى وصَف الجبالَ بصفاتٍ مختلفةٍ ترجِعُ كلُّها إلى تفريغ الأرض منها وإبرازِ ما كانت تواريه.

فأوّل الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة.

ثم: تصير كالعِهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماءُ كالمُهْل، وقد جَمع الله بينهما فقال: ﴿يومَ تكونُ السماءُ كالمُهل. وتكونُ الجبالُ كالعِهن﴾.

والحالة الثالثة: أن تصير كالهَباء، وذلك أن تتقطّع بعد أن كانت كالعِهن.

والحالة الرابعة: أن تُنسف، لأنها مع الأحوال المتقدّمة قارّةٌ (أي مستقرّةٌ) في مواضعها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ فتُنسَف عنها لتبرز، فإذا نُسفتْ فبإرسال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أنّ الرياحَ تَرفعُها على وجهِ الأرض فتُظهرُها شعاعاً في الهواء كأنّها غبار، فمن نظر إليها من بعيدٍ حَسِبها لتكاثفها أجساماً جامدة، وهي بالحقيقة مارّةٌ، إلّا أنّ مرورها مِن وراء الرياح كأنها مندكّةٌ متفتّتة.

والحالة السادسة: أن تكون سراباً، فمن نظر إلى مَواضعِها لم يَجدْ فيها (أي في هذه المواضع) شيئاً منها، كالسراب.

قال الماورديّ: وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال:

أحدها أنه مثلٌ ضربه الله تعالى للدنيا، يظنّ الناظرُ إليها أنها واقفةٌ كالجبال، وهي آخذةٌ بحظّها من الزوال، كالسحاب، قاله سهلُ بن عبد الله.

الثاني أنه مثلٌ ضربه الله للإيمان، تحسبه ثابتاً في القلب، وعمله صاعدٌ إلى السماء.

الثالث: أنه مثلٌ ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش[10].

---

(10) القرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاريّ. **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: مصطفى السقّا. بيروت: دار الفكر، 1987، ج13، ص242 - 243.

كانت هذه التفسيراتُ جميعاً قبل أن يُكتشَف دوران الأرض فيفهم الصغيرُ والكبير من الآية أن الجبال تتحرّك حقّا مع حركة الأرض، مثلما يتحرّك السحاب، ونحن نظنّها ثابتةً في مكانها. هل ترون اليوم في الآية أيّ لَبْسٍ على الإطلاق للتعبير عن هذه الحقيقة العلميّة؟

كيميائيّة اللغة الانفتاحيّة:

كيف حقّقت لغة القرآن هذا الهدف "الانفتاحيّ" الفريد؟ وما أهمّ السبل التي نستطيع تلمُّسها ونحن نحاول اكتشاف الأسرار اللغويّة لهذه الخصيصة القرآنيّة؟

لقد استخدم القرآن الكريم وسائل نحويّةً ولغويّةً جديدةً لم يعرفها العرب من قبل لتحقيق هذه الخصيصة المتميّزة، ولتذليل اللغة للمعاني الجديدة، واكتسابها لأبعادها المتعدّدة.

وكان الخروج على أعراف العرب اللغويّة، وتطوير قواعدهم النحويّة تطويراً يغنيها ويضيف إليها من غير أن يلغيها أو يُحلّ محلّها قواعد جديدةً مغايرة، هو البوّابة الواسعة التي عبرت منها لغة القرآن الكريم لتحقيق هذه الغاية.

إنّ هناك المئات من الخصائص الجديدة التي أضافها القرآن إلى اللغة العربيّة ممّا يستحيل إحصاؤه في مثل هذه المرحلة وفي بحثٍ كاشفٍ كهذا ينحصر هدفه في إبراز الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن. ولكنّني سأكتفي هنا، مع ذلك، بعرض مائة حالةٍ من أهمّ ما توصّلتُ إليه من تلك الخصائص، مكتفياً بمثالٍ واحدٍ من كلّ حالة، إلّا في الحالات التي قد يستدعي توضيحها وجود أكثر من مثالٍ واحد، مع التأكيد على توفّر الأمثلة الكثيرة في القرآن لمعظم هذه الحالات:

1 - الابتداء بنكرة (البقرة: 217، 220، 229 ...)

2 - مجيء كلٍّ من المبتدأ والخبر نكرةً (البقرة: 220)

3 - عودة الخبر على غير المبتدأ (البقرة: 234)

4 - حذف خبر (إنّ) من غير وجود ما يدلّ عليه (الحجّ: 25)

5 - تقديم الخبر على الاسم بعد (إذا) الفجائيّة (يونس: 21)

6 - حذف اسم (إنّ) المخفّفة من الثقيلة (البقرة: 143)

7 - حذف المبتدأ المؤخّر (البقرة: 96، النساء: 159)

8 - مجيء خبر (إنّ) طلباً ومقترناً بالفاء (آل عمران: 21)

9 - زيادة الباء في خبر (أنّ) (الأحقاف: 33)

10 - تنكير الاسم بعد (مَن) الاستفهاميّة (القصص: 71)

11 - إعادة المذكّر على مؤنّث (آل عمران: 45، الأعراف: 56)

12 - استخدام ضمير الرفع في محلّ ضمير النصب (آل عمران: 180)

13 - عودة ضمير المفرد على مثنّى (التوبة: 62)

14 - عودة الضمير على غير مذكور (الأحقاف: 24)

15 - عودة الضمير على متأخّر (البقرة: 96)

16 - عدم إعمال (إنْ) الشرطيّة الجازمة (آل عمران: 120)

17 - تنازع شرطين على جوابٍ واحد (النساء: 24)

18 - ارتباط المعطوف بالفاء على جواب أداة الشرط (لو) باللام المؤكّدة أو الرابطة للجواب (النساء: 90)

19 - مجيء جواب (لو) الشرطيّة جملةً اسميّة (البقرة: 103)

20 - بدء جواب الشرط بشرطٍ آخر (الأنعام: 35)

21 - مجيء فعل (لو) وجوابها مضارعين مع تأكيد الجواب بالنون (التكاثر: 4-5)

22 - ارتباط (لا) النافية بـ (إنْ) الشرطيّة (إلّا) بدلاً من (لم) الجازمة (الأنفال: 73)

23 - مجيء فعل الشرط مضارعاً بعد (إذا) الشّرطيّة (الإسراء: 107)

24 - فتح همزة (إنّ) بعد الفاء الرابطة لجواب الشرط (الأنعام: 54)

obeikan.com

25 - عدم ارتباط جواب الشرط بالفاء (البقرة: 120)
26 - مجيء جواب (لمّا) مضارعاً لا ماضياً (هود: 74)
27 - مجيء جواب (إذا) مقروناً بلام الابتداء (مريم: 66)
28 - مجيء جواب (إذا) مقترناً بأداة شرط (النساء: 25)
29 - مجيء جواب الشرط حالاً (المعارج: 20)
30 - تقديم جواب الشرط على ما هو معطوفٌ على جزءٍ من فعل هذا الشرط (طه: 130)
31 - ارتباط جواب الشرط الماضي بالفاء (النمل: 90)
32 - خلوّ جواب الشرط ممّا يعود على صاحب الشرط (آل عمران: 76)
33 - مجيء الصفة جملةً شرطيّة (المائدة: 101)
34 - عمَلُ الاستفهام عمَلَ الطلب في جزم المضارع (الصفّ: 10)
35 - حذف أداة الاستفهام (الأعراف: 113)
36 - كسر همزة (إنّ) بعد (إلّا) (الفرقان: 20)
37 - فتح همزة (إنّ) في مطلع جملة جواب الشرط (التوبة: 63)
38 - فتح همزة (إنّ) في ابتداء الجملة (الأنعام: 54)
39 - دخول همزة الاستفهام على (إنّ) التأكيديّة (الأنعام: 19)
40 - دخول همزة الاستفهام على (ثمّ) العطفيّة (يونس: 51)
41 - تكرار همزة الاستفهام (يونس: 77)
42 - عدم إعمال (أنْ) الناصبة قبل (لا) النافية (النجم: 38)
43 - عدم إعمال (إذن) عمل النصب (النساء: 53)
44 - عدم إعمال (لا) النافية للجنس عمل (إنّ) المشبّهة بالفعل (يونس: 62)
45 - النصب بـ(الواو) بدلاً من (فاء) السببيّة (الأنعام: 27)
46 - مجيء (واو المعيّة) بعد الأمر (يونس: 71)
47 - إحلال (إلّا) محلّ (غير) الاستثنائيّة (الأنبياء: 22)

obeikan.com

48 - إحلال (إلّا) محلّ (لكنْ) الاستدراكيّة (يونس: 98)

49 - استخدام النفي بمعنى النهي (النساء: 92)

50 - استخدام الاستفهام بمعنى التوكيد (يونس: 77)

51 - زيادة لام التوكيد بعد الاستفهام (النمل: 67)

52 - استخدام (هل) الاستفهاميّة بمعنى (قد) التحقيقيّة (الإنسان: 1)

53 - دخول (هل) الاستفهاميّة على الفعل الناقص (عسى) (البقرة: 246)

54 - استخدام (قد) للتحقيق مع وقوعها قبل المضارع (الصفّ: 5)

55 - عدم العطف على (فلا) أو تكرار (لا) بعدها (البلد: 12)

56 - بدءُ البدل بلام التوكيد (الأنعام: 12)

57 - الفصل بين البدل والمبدل منه بفعلٍ عاملٍ في البدل نفسه (الأنعام: 14)

58 - الفصل بين الصفة والموصوف بالحال (الأعراف: 158)

59 - الفصل بين الفعل ومفعوله بلام التوكيد (الحجّ: 13)

60 - الفصل بين الفعل وفاعله باللام (الكهف: 35)

61 - رفع المستثنى التامّ (النساء: 66)

62 - استثناء اسم (كان) من خبرها (النمل: 56)

63 - مجيء الاستثناء مع عدم ذكر المستثنى منه (المدّثّر: 56)

64 - خلوّ المستثنى من عائدٍ يعود على المستثنى منه (آل عمران: 112)

65 - عطف المرفوع على المنصوب (التوبة: 3)

66 - النصب حيث يُتوقّع الرفع (الحاقّة: 47)

67 - الرفع حيث يُتوقّع النصب (طه: 129)

68 - تعريف كلٍّ من المضاف والمضاف إليه بـ (ال) (الحجّ: 35)

69 - مجيء الظرف (بين) اسماً عاديّاً مضافاً إليه (المائدة: 106)

70 - مجيء الظرف (بينَ) اسماً عاديّاً مفعولاً به (الكهف: 93)

obeikan.com

71 - إضافة الظرف المُعرَب إلى جملةٍ (ص: 79)

72 - بناء الضمير المتّصل (الهاء) على الضمّ بدلاً من الكسر (الفتح: 10)

73 - جزم المضارع المعتلّ الآخِر بالسكون وبحذف حرف العلّة معاً (النور: 52)

74 - مجيء جملة الماضي حالاً من غير ارتباطها بـ (قد) (الحجّ: 11)

75 - مجيء الماضي بعد (إلّا) من غير اقترانه بـ (قد) (فاطر: 24)

76 - عدم ارتباط خبر (كان) بـ (قد) عند مجيئه فعلاً ماضياً (يوسف: 27)

77 - حذف المفعول به (البقرة: 118، 221..)

78 - حذف تمييز فعل الذمّ مع إضمار فاعله (الجمعة: 5)

79 - استخدام صيغة (ما أفعَلَه) للتأكيد بدلاً من التعجّب (البقرة: 175)

80 - مجيء (إنّما) الكافّة والمكفوفة مع ما بعدها مصدراً مؤوَّلاً (الأنبياء: 108)

81 - إضافة مصدر مؤوّل إلى اللفظ (مِثْل) (الذاريات: 23)

82 - مجيء اسم (إنّ) مصدراً مؤوّلاً (طه: 118)

83 - إحلال المصدر محلّ الصفة (الجنّ: 1)

84 - إحلال المصدر محلّ اسم الفاعل (البقرة: 240)

85 - مجيء خبر الضمير مصدراً (البقرة: 216)

86 - ظهور ضمير الشأن (يونس: 17)

87 - حذف الأدوات التي تتعدّى بها الأفعال (يونس: 18)

88 - الاستغناء عن فعل القول قبل المقُول (الأنفال: 50)

89 - مجيء المضارع بمعنى الماضي (الأنعام: 75)

90 - مجيء الماضي بمعنى المضارع (النحل: 89)

91 - احتمال (ما) معنى الموصوليّة والنفي معاً (يونس: 66)

92 - تعدّد احتمالات إعراب المصدر المؤوّل (آل عمران: 73)

93 - تحميل الواو معنى العطف والاستفهام معاً (آل عمران: 8)

94 - احتمال صيغة الفعل للماضي والمضارع معاً (آل عمران: 32)

95 - احتمال عودة الكلام إلى الله تعالى أو إلى غيره (آل عمران: 36)

96 - عطف الفعل على الاسم (العاديات: 2 - 5)

97 - إعطاء معانٍ جديدةٍ للأفعال بتغيير الأدوات أو الحروف التي تتعدّى بها (وهو كثير)

98 - حذف فعل القول مع الضمير العائد على القائل (وهو كثير)

99 - حذف المضاف (وهو كثير)

100 - حذف الروابط اللغويّة بين الجمل أو الآيات كالواو والفاء (وهو كثير)

المواقع الانفتاحيّة في سوة (المدّثّر):

لقد اعتمدنا سورة (المدّثّر) حتى الآن في دراستنا التحليليّة لمختلف الجوانب اللغويّة الجديدة في القرآن، ولو شئنا رصد الألفاظ والتعبيرات المنفتحة في هذه السورة، وهي عادةً أكثر المواقع التجديديّة إثارةً للجدل عند المفسّرين واللغويّين والنحويّين، وأرحبها قابليّةً للشروح المتعدّدة والتخريجات النحويّة المختلفة، لخرجنا منها بما لا يقلّ عن 29 موقعاً، بين لفظٍ أو عبارة. وهي:

- ﴿قُمْ فأنذِر﴾
- ﴿وربَّك فكبِّر﴾
- ﴿وثيابَكَ فطهِّر﴾
- ﴿والرُجْزَ فاهجُر﴾
- ﴿ولا تَمْنُنْ تَستكثِرْ﴾
- ﴿ولربِّكَ فاصبِر﴾
- ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾
- ﴿ذَرْني ومن خلقتُ وحيدا﴾

- ﴿وبنينَ شُهودا﴾
- ﴿ومهّدتُ له تمهيدا﴾
- ﴿كلّا﴾
- ﴿إنّه كان لآياتِنا عنيدا﴾
- ﴿سأرهِقُه صَعُودا﴾
- ﴿إنْ هذا إلّا سِحرٌ يُؤثَر﴾
- ﴿سأُصْليهِ سَقَر﴾
- ﴿لَوّاحةٌ للبَشَر﴾
- ﴿الذين في قلوبِهم مرضٌ﴾
- ﴿كلّا والقمر﴾
- ﴿إنّها لَإحدى الكُبَر﴾
- ﴿نذيراً للبشَر﴾
- ﴿لِمَن شاء منكم أن يتقدّمَ أو يتأخّر﴾
- ﴿إلّا أصحابَ اليمين﴾
- ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾
- ﴿نخوضُ مع الخائضين﴾
- ﴿أتانا اليقين﴾
- ﴿حُمُرٌ مُستنفِرة﴾
- ﴿قَسْوَرَة﴾
- ﴿أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرة﴾
- ﴿هو أهلُ التقوى﴾

وبإمكانكم أن تتوقّفوا عند كلّ لفظٍ أو عبارةٍ منها، وأن تتمعّنوا فيها واحدةً واحدة، لتتبيّنوا بأنفسكم الأبعاد العديدة التي يحملها كلٌّ منها، بدءاً من العبارة الأولى: "قم فأنذِرْ" وما يحمله الفعل (قُمْ) من معانٍ احتماليّةٍ

obeikan.com

متعدّدة: فهل هو النهوض، أو هو التحرّك، أو هو الإشارة للشروع بالعمل، أو هو الاستنفار والتأهّب؟ وكذلك الفعل (فأنذِر) الذي قد يعني: فبلّغ الرسالة، أو: فأنذر باقتراب الساعة، أو: فأنذر بعقوبة الدّنيا، أو: فأنذر بالنار والخلود فيها... وانتهاءً بالعبارة الأخيرة فيها: (هو أهلُ التقوى) وما في اللفظ (أهل) من معانٍ محتمَلة: صاحب الشيء، أو مانحه، أو الجدير به، أو مرجعيّته، وكذلك ما في لفظ (التقوى) من إمكاناتٍ معنويّةٍ متعدّدة: فقد يكون بمعنى الاتّقاء: وهو اتقّاؤنا لعذاب الله يوم القيامة بإيماننا به، وقد يكون بمعنى الوقاية نفسها: أي وقايته تعالى للناس من هذا العذاب لو آمنوا به، أو وقايته لهم من شرور الدنيا، أو من شرّ ما خَلق..

ومن نافل القول أنّ اجتماع لفظين منفتحين في عبارةٍ واحدة من شأنه أن يضيف رصيداً جديداً إلى انفتاحيّتها، وأن يضاعف القوّة الاحتماليّة لهذه العبارة ويزيد من المعاني والظلال التي ترتسم حولها، وذلك عن طريق الجسور التي نقيمها بين كلّ معنىً احتماليٍّ لأحد اللفظين؛ وكلّ معنىً احتماليٍّ للّفظ الآخر، فينشأ من خلال هذا التبادل والاختلاط عديدٌ من الجسور والعلاقات الإضافيّة الجديدة.

إنّ النسبة العالية من المواقع المنفتحة في (المدّثّر) تقدّم لنا فكرةً تقريبيّةً عن مدى سيطرة هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات المنفتحة على لغة القرآن الكريم في سائر سوَره، مع التأكيد مرّةً أخرى على أنّ انفتاح هذه اللغة لا يعني وجود ثغرةٍ خطيرةٍ في القرآن تمكّن أصحاب الأغراض من تحريف معانيه، فأمثال هؤلاء من ذوي القلوب المريضة لن يوقفهم شيءٌ عن محاولات التحريف، وقد جرّبوا ذلك على مدى العصور، وما زالوا يفعلون، وإنّما هي خصيصةٌ تغني هذه المعاني وتزيدها خصوبةً وحيويّةً وعطاءً على مرّ القرون، وعبر تطوّر معارف الإنسان واختلاف بيئته وثقافته.

القراءات والانفتاح:

وقبل أن نختم الحديث عن اللغة المنفتحة لا بدّ أن نتوقّف عند منعطَفين قرآنيّين هامّين يمكن أن يدخلا تحت هذا العنوان، وإن كنّا سنتجنّب إدخالَهما

في الجزء التطبيقيّ من الكتاب، فهما بابان واسعان يحتملان الكثير من الأخذ والردّ وتشابك الآراء واختلاف الأحكام اللغويّة والفقهيّة، وليس هذا البحث مكانَ ذلك كلِّه. والبابان هما: القراءات القرآنيّة، وما يسمّى بالناسخ والمنسوخ من آيات الكتاب الحكيم.

أمّا باب القراءات فهو من أعجب ما قدّمه القرآن لنا في مجال اللغة المنفتحة، ممّا لم يعرفه أيّ كتابٍ آخر عرفته البشريّة، لا قبل القرآن ولا بعده، كما سبق أن أكّدنا.

وقد أثار المستشرقون، ومن تبعهم بعد ذلك، لغطاً كبيراً حول هذا الجانب الإعجازيّ في لغة القرآن، ورصدوا له البحوث المطوّلة، وخصّصوا من أجله المنح الدراسيّة السخيّة رجاء أن يعثروا على منافذ لشكوكهم أو ثغراتٍ لخيالاتهم يستطيعون النفاذ منها للنيل من مصداقيّة القرآن ومرجعيّته، من غير أن يتوقّفوا للحظةٍ واحدةٍ مع ضمائرهم ومناهجهم العلميّة، التي تعلّمنا منها الكثير نحن الشرقيّين، فيعترفوا معها بأنّ القراءات القرآنيّة ماهي إلّا جانبٌ إعجازيٌّ آخر في لغة هذا الكتاب المدهش.

هل سمعتَ عن كتبٍ عديدةٍ جاءت في كتابٍ واحدٍ، ووجوهٍ من النصوص اختُصِرَت في نصٍّ واحد، بحيث يمكن لهذا النصّ أن يُقرأ بأكثر من طريقة، أو أن يحمل أكثر من معنىً، من غير أن يكون هناك أيّ تناقضٍ أو تباعدٍ بين هذه المعاني على اختلافها وتعدّدها؟

إنّ المسألة ليست اختلافاً بين المسلمين، ولا بين اللغويّين، في طريقة قراءة اللفظ القرآنيّ تبعاً للّهجة أو القبيلة التي ينتمي إليها القرّاء، كما يظنّ بعضهم، وإنّما هي طرائق متنوّعةٌ للقراءة أُنزلت هكذا متعدّدةً من السماء، إغناءً للغة القرآن، وإثراءً لمعانيه، وتسهيلاً لقراءته، وإضافةً إلى جوانبه الإعجازيّة التي يتفرّد بها دون أيّ كتابٍ آخر.

وإذا كان من خلافٍ بين اللغويّين أو القرّاء بخصوص هذه القراءات فإنّما هو حول "مَن يفضِّل ماذا؟" من هذه القراءات، لأنّها جميعاً، والقراءات السبع منها بخاصّة، مُنزَلةٌ من السماء، كما يؤكّد لنا الرسول ﷺ في

عديدٍ من الأحاديث الشريفة، من مِثل هذين الحديثين:

- عن ابن مسعودٍ ﵁ قال: أقرأني رسولُ الله ﷺ سورة (الأحقاف)، وأقرأَها آخرَ فخالفَ قراءتَه، فقلتُ: من أَقرأَكَها؟ قال: رسولُ الله ﷺ، فقلت: واللهِ لقد أقرَأني رسولُ الله ﷺ غيرَ ذا!! فأتينا رسولَ الله ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله، ألم تُقرِئْني كذا وكذا؟ قال: بلى، وقال الآخر: ألم تُقرِئْني كذا وكذا؟ قال: بلى. فتَمَعَّر وجهُ رسول الله ﷺ فقال: لِيقرأْ كلُّ واحدٍ منكما ما سمِع فإنّما هلَكَ مَن كان قبلكم بالاختلاف»[11].

- عن عمر بن الخطّاب ﵁ قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيمٍ يقرأ سورةَ (الفرقان) في حياةِ رسولِ الله ﷺ فاستمعتُ لقراءتِه فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله ﷺ فكدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتّى سَلّم، ثمّ لَبّبتُه بردائه، فقلتُ: مَن أقرأكَ هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ قال: أقرَأَنيها رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: كذبتَ، فوالله إنّ رسولَ الله ﷺ أقْرأَنِيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: يارسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورةَ (الفرقان) على غير ما أقرَأْتَنِيها، فقال رسولُ الله ﷺ أرسِلْه يا عمر، اِقرأْ يا هشام. فقرأ القراءةَ التي سمعتُه يقرأُها، فقال رسولُ الله ﷺ: هكذا أُنزِلَتْ. ثمّ قال لي: اِقرأ يا عمر، فقرأتُ التي أقرأَني، فقال: هكذا أُنزِلَتْ، إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرأوا ما تَيَسّرَ منه»[12].

ومن المهمّ التأكيد أنّ الاختلافات بين القراءات القرآنيّة، على تعدّدها،

---

(11) السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج7، ص433.

(12) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج2، ص851، وج6، ص2541.
وانظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج1، ص560.
وللمزيد من هذه الأحاديث راجع كتب القراءات، ولا سيّما الكتاب التالي لابن الجزريّ (ت833هـ):
- ابن الجزريّ، محمد بن محمد. **تقريب النشر في القراءات العشر**. تحقيق إبراهيم عطوة عوض. القاهرة: دار الحديث، 1996، ص47-51.

لا ينتج عنها أيّ اختلافٍ أساسيٍّ في المعنى. ولنتوقّف قليلاً عند نماذج من القراءات لتكون أمامنا شريحةً علميّةً عشوائيّة، وقد حصرناها في مقطعٍ صغيرٍ من سورة (الكهف)[13]

- ﴿فأردْنا أن يُبدِلَهُما ربُّهما خيراً منه زكاةً﴾ [الآية 81] (وقُرئت أيضاً: يُبَدِّلَهما، ويُبْدِلَهُ، ويُبْدِلَنا)
- ﴿فأَتْبَعَ سَبباً﴾ [الآية 85] (وقُرئت: فاتَّبَعَ)
- ﴿في عَيْنٍ حَمِئةٍ﴾ [الآية 86] (وقُرئت: حاميَةٍ)
- ﴿فلهُ جزاءً الحُسْنى﴾ [الآية 88] (وقُرئت: جَزاءُ)
- ﴿حتّى إذا بَلَغَ بينَ السَدَّينِ﴾ [الآية 93] (وقُرئت: السُدَّين)
- ﴿إنّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفسِدون في الأرضِ﴾ [الآية 94] (وقُرئت: يَاجوجَ وماجوج)
- ﴿فهل نَجعلُ لكَ خَرْجاً﴾ [الآية 94] (وقُرئت: خَراجاً)
- ﴿حتّى إذا ساوَى بين الصَدَفَيْنِ﴾ [الآية 96] (وقُرئت: الصُدْفَيْن، والصُدُفَيْن، والصَدُفَين)

فإذا وقع اختلافٌ في المعنى كان ذلك في حدودٍ لا تخرج معها القراءتان إلى التناقض، أو حتّى التباعد، كما في هذه الآيات من المقطع نفسه من سورة (الكهف):

- ﴿لا يكادون يَفْقَهون قَولاً﴾ [الآية 93] (وقُرئت أيضاً: يُفْقِهون)

---

(13) للتوسّع في هذا الجانب تُراجَع كتب القراءات، ولا سيّما الكتاب التالي للأصبهاني (ت381هـ): الأصبهانيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين. **المبسوط في القراءات العشر**. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي. بيروت: مؤسّسة علوم القرآن، جدّة: دار القبلة، 1988. وقد أهملنا في دراستنا ما سُمّي بالقراءات الشاذّة، أو ما خرج عن القراءات السبع المعروفة، وإن وُجد بعض من يدافع عن بعضها قديما وحديثاً، وارجع إلى كتاب ابن جنّي "المحتسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات". ابن جنّي، أبو الفتح عثمان. **المحتَسَب في تبيين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها**. تحقيق محمد عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1998.

obeikan.com

- ﴿قال آتُوني أُفْرِغْ عليهِ قِطْراً﴾ [الآية 96] (وقُرئت: قالَ أْتُوني)
- ﴿أفَحَسِبَ الذين كَفَروا أنْ يَتّخِذوا عباديْ مِن دوني أولياءَ﴾ [الآية 102] (وقُرئت: أفَحَسْبُ)

فالفرق في الآية الأولى بين أن يَفهم القوم الذين التقى بهم ذو القرنين عند السدّين ما يقوله الآخرون (يَفقَهون) وبين أن يَفهم الآخرون ما يقولونه (يُفقِهون) يؤدّي في النهاية إلى معنيين مختلفين ولكن متكاملين، فالأخير يدلّ على صعوبة فهم لغتهم التي يتحدّثون بها، والأوّل يدلّ على ضعف قدرتهم على فهم لغة الآخرين، وهذا الفرق يجعل من العبارة لغةً مفتوحةً، ومن ثمّ أكثر غنىً وأشدّ إمتاعاً للقارئ بما تحتمله من تفسيراتٍ وأوجهٍ متعدّدة.

والفروق في قراءتَيْ الآية الثانية بين طلب ذي القرنين منهم أن يُحضروا له النحاسَ المُذاب (آتُوني قِطْراً)، أو أن يُحضروا النحاس ليُذيبه هو بنفسه (آتُوني أُفْرِغْ قِطراً)، وبين دعوته لهم للمجيء لمساعدته في صبّ النحاس لإقامة السدّ (اِأْتوني) أو ليساعدوه في كلّ هذه الأمور معاً، أو ربّما ليشهدوا معه، وليس أكثر، هذا الحدثَ الكبير (اِأْتُوني "لترَوا كيف أُفرغُ عليه قِطرا")، فُروقٌ ممتعةٌ أخرى تدلّ على غنىً وخصوبةٍ وتكاملٍ بين هذه المعاني جميعاً أكثر منها على اختلافٍ أو تناقضٍ بينها.

والفرق في الآية الثالثة بين أن يظنّ الكافرون فيمن اتّخذوهم آلهةً من دون الله القدرةَ على مساعدتهم وحمايتهم (أفَحَسِبَ)، وبين أن يكتفوا بتلك الآلهة معتمَداً ووكيلاً يتّكلون عليه (أفحَسْبُ) ليكونوا بذلك مستحقّين لخذلان الله وعقابه، يضفي على العبارة ظلالاً وغنىً وألواناً لا تتوفّر في الجملة البشريّة التي تخلو من مثل هذا البعد اللغويّ الإضافيّ الجديد.

ولا تنحصر القراءات في سبعٍ، كما قد يفهم بعضهم من حديث الرسول ﷺ المعروف "نزل القرآن على سبعة أحرف"، فمعظم كلمات القرآن لا تُقرأ بأكثر من طريقةٍ واحدة، ولكنّ قراءات بعضها قد ترتفع لتصل إلى تسعٍ وثلاثين

(14) انظر: السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص303.

قراءة، كما سبق أن ذكرنا بخصوص اللفظ القرآنيّ (أفٍّ)[14].

ومن المهمّ أن ننبّه أخيراً إلى أنّ القراءات السبع، وقد صادف أن جاءت سبعاً لأنّ عدد القرّاء المشهورين الذين تنتهي إليهم أسانيد قراءاتنا كانوا سبعةً، هي غير (الحروف السبعة) التي جاءت في الحديث النبويّ. ومع أنّهم "اختلفوا في شرح هذا الحديث على نحو أربعين قولاً" كما ينصّ السيوطي[15] فإنّ مراجعةً استقرائيّةً متفحّصةً للروايات العديدة التي وردت لهذا الحديث، وهي تزيد على خمس عشرة، تُرجّح لدينا أنّ (الحروف السبعة) ما هي إلّا مراعاة اللهجات المحلّية وكذلك المخارج المختلفة للحروف التي يمكن أن تتنوّع بين مثقّفٍ وأمّيٍّ وشابٍّ وشيخ، كما يمكن أن توضّح لنا هذه الرواية التي وجدتُها أكثر الروايات توضيحاً لحقيقة المقصود (بالحروف)، وهي روايةٌ صحيحة الإسناد كما ينصّ عبد الصبور شاهين في كتابه القيّم "تاريخ القرآن"[16]:

- حدّثنا أبو كُريب، قال: حدّثنا حسين بن عليّ، وأبو أسامة، عن زائدة، عن عاصم عن زرٍّ، عن أُبيٍّ: لقي رسولُ الله ﷺ جبريلَ عند أحجار المراء (موضعٌ بقُباء) فقال: إنّي بُعثتُ إلى أمّةٍ أمّيّين، منهم الغلام والخادم والشيخ العاسي والعجوز، فقال جبريل: فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف. ولفظ الحديث لأبي أسامة.

(الناسخ والمنسوخ) والانفتاح:

أمّا الجانب الهامّ الآخر من جوانب الانفتاح في النصّ القرآنيّ، وهو ما أطلقوا عليه اسم (الناسخ والمنسوخ)، فله أبعادٌ أكثر خطورةً وأعمق أثراً في التفكير الفقهيّ عند المسلمين.

لقد وُضِعت عشرات البحوث، قديماً وحديثاً، لمعالجة هذا الموضوع المشكِل، بعضهم يؤكّده من غير أي تحفّظ، وبعضهم ينفيه ثمّ لا يسمح بأيّ

(15) السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج1، ص92 .

(16) شاهين، عبد الصبور. **تاريخ القرآن**. القاهرة: دار القلم، 1966. ص230.

هامشٍ لاحتمالات وجوده، وبعضهم يذهب بين هذا وذاك فيفرّق بين نَسْخ وتخصيصٍ واستثناء. ولكنّني لا أكاد أعرف من تنبّه إلى أنّ هذا الموضوع ما هو إلّا جانبٌ هامٌّ آخر من جوانب الانفتاح في النصّ القرآنيّ.

إنّ من الحكمة، مرّةً أخرى، ألّا نخوض عميقاً في هذا الموضوع الشائك في بحثٍ كهذا غير متخصّصٍ بعلوم الوحي وتاريخ القرآن، فإنّما هو بحثٌ في الإعجاز اللغويّ أوّلاً وأخيراً، ومن المهمّ أن ننبّه أيضاً إلى أنّ كلّ الآراء والأحكام التي خرج بها العلماء في علم المُحْكَم والمنسوخ آراءٌ جديرةٌ بالتوقّف والتفكّر والاحترام، حتّى إن ذهبنا إلى غير ما ذهبوا إليه، فإنْ هو إلّا رأيٌ آخر نضيفه إلى الآراء الكثيرة التي أغنت فهْمَنا للإسلام وفقهِه وعلومه وتراثه.

لقد سبق أن خالفنا من ذهب إلى تفسير (آية) على أنّها الآية القرآنية في قوله تعالى:

- ﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ أو نُنْسِها نَأتِ بخيرٍ منها أو مِثْلِها﴾ [البقرة: 106].

وقلنا إنّما هي هنا على الأغلب آية الخلق والإعجاز الإلهيّ؛ فلو ذهبنا إلى ما ذهبوا إليه فسيكون ما أطلقوا عليه اسم (المنسوخ) ما هو إلّا (المعلّق) أو (المُنْسَأ) إذا كانت (نُنْسِها) فهي في الآية مخفّفة من (نُنْسِئْها) كما ذهب بعض المفسرين، فهي على هذا بمعنى: نعلّق أو نؤجّل العمل بها إلى أن تعود فتتكرّر الشروط التي نزلت فيها فيتكرر العمل بها(17).

لقد تغيّرت مواقع الإسلام ومواقع الأشياء عبر مراحل تاريخيّةٍ عديدةٍ منذ أن نزل الوحي على الرسول ﷺ بكلمات القرآن الأولى (اِقرأ باسم ربّك الذي خَلَق) حتى نزول الكلمات الأخيرة من الوحي وانتقال الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى. وكان لكلّ مرحلةٍ متطلّباتُها وظروفها التي تختلف عما سبقها أو لحقها من مراحل تاريخيّةٍ ومواقع حضاريّة.

---

(17) يقول السيوطي في مثل هذا المعنى: إنّ كلّ أمرٍ يجب امتثالُه في وقتٍ ما لعِلّةٍ تقتضي ذلك الحُكم، ثمّ ينتقل، بانتقال تلك العلّة، إلى حُكم آخر، وليس بنسخ". السيوطيّ، جلال الدين. **الإتقان في علوم القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص41.

obeikan.com

فحين كان الإسلام في بداياته، والمسلمون ما يزالون قلّة، كان بدهيّاً أن تدعو الآيات إلى الأخذ بالسلم والصلح والمهادنة مع الأعداء والصبر على المعتدين. ولكنّ ازدياد أعداد المسلمين ونموّ قوّتهم السياسيّة والعسكريّة، سيفسح المجال عمّا قريبٍ لاستخدام القوّة واللجوء إلى الدفاع المسلّح عن الدين وأتباعه ضدّ أيّ معتدٍ، ثم لمزيدٍ من التطوّر في التعامل مع أعداء الدين الجديد ومناهضيه والمتآمرين عليه، بحيث تتمّ ملاحقتهم وقتالهم حيثما وُجِدوا.

وبدهيٌّ أن تكون لكلّ مرحلةٍ من مراحل التطوّر السياسيّ والعسكريّ هذه آياتها التي تَحكم حركتها وتنظّم تيّارها، بحيث تُعطِّل آياتُ المرحلة التالية آياتِ المرحلة السابقة، كما يرى من يقول بالنسخ، أو بالأحرى "تُعلِّق" مفعولَها، كما اخترنا أن نذهب إليه في هذا البحث.

فلو عاد الزمن بالمسلمين إلى شروط أيّة مرحلةٍ من تلك المراحل المندثرة، عادوا إلى آياتها فاعتمدوها في تعاملهم مع أعدائهم. وإذن فأحكام هذه الآيات التي تنظّم العلاقات السياسيّة والحربيّة للمسلمين مع أعدائهم تظلّ سارية المفعول على مرّ السنين، كلّ عصرٍ يأخذ منها ما يحتاج إليه وما يتواءم مع شروطه وأوضاعه.

فإذا ضعُف المسلمون وتراجعت دولتهم، فلم يعودوا قادرين على فرض كلمتهم وإسماع صوتهم للآخرين، أو إذا حدث أن تهيّأ للعالم منظّماتٌ دوليّةٌ تحكم بين الأمم بالعدل والتساوي فلا تكيل بينها بمكيالين، أخذوا بمثل هذه الآيات:

- ﴿وَدَّ كثيرٌ مِن أهلِ الكتابِ لو يردّونكم مِن بَعدِ إيمانِكمْ كُفّاراً حَسَداً من عندِ أنفُسِهِمْ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهمُ الحقُّ فاعفُوا واصفَحوا حتّى يأتيَ اللهُ بأمرِه﴾ [البقرة: 104].
- ﴿لا إكراهَ في الدينِ﴾ [البقرة: 256].
- ﴿فأَعرِضْ عنهمْ وعِظْهمْ وقُلْ لهمْ في أنفُسِهم قولاً بليغاً﴾ [النساء: 63].
- ﴿وما على الرسولِ إلّا البلاغُ﴾ [المائدة: 99].

- ﴿وما جعلناكَ عليهمْ حفيظاً وما أنتَ عليهمْ بوكيلٍ﴾ [الأنعام: 107].
- ﴿واهجُرهمْ هَجْراً جميلاً﴾ [المُزّمّل: 10].
- ﴿واصفَحْ عنهمْ وقُلْ سلامٌ﴾ [الزُخرُف: 89].
- ﴿وذَرِ الذين اتَّخَذوا دِينَهمْ لَعِباً ولَهْواً﴾ [الأنعام: 70].

فإذا انعدمت مثل هذه الوسائل والشروط السلميّة، وتراجعت العدالة في العالم، وتعرّضت الأمّة الإسلاميّة للظلم والعدوان، وكانت قادرةً على الدفاع عن نفسها وتملك أبسط الشروط للوقوف في وجه الظلم، كان لها أن تأخذ بالآيات الأخرى:

- ﴿فمنِ اعتدى عليكمْ فاعتدُوا عليه بمثْلِ ما اعتدى عليكم﴾ [البقرة: 194].
- ﴿فإنِ اعتزلوكمْ فلم يُقاتلوكمْ وألْقَوا إليكمُ السَلَمَ فما جعلَ اللهُ لكمْ عليهمْ سبيلاً﴾ [النساء: 90]
- ﴿وإن جَنَحوا للسَلمِ فاجنَحْ لها﴾ [الأنفال: 61].

أمّا إذا عادت الأمّة إلى سابق حصانتها وقوّتها، واستعادت مكانتها بين الأمم، لتكون بمثابة شرطيّ الأمن المعتدّ بمسؤوليّته، والذي يحافظ ما أمكنه على سلامة المسلمين وسلامة من هم في ذمّتهم، وسلامة العالم بأسره من أيّ خطرٍ قد يهدّده، فلا بدّ أن تتبنّى آياتِ الجهاد القصوى فتستلهمها في خططها السياسيّة والعسكريّة:

- ﴿واقتُلوهُمْ حيث ثِقِفتُموهمْ وأخرِجوهمْ من حيثُ أخرجوكمْ﴾ [البقرة: 191].
- ﴿وقاتِلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ﴾ [البقرة: 193، والأنفال: 39].
- ﴿كُتِبَ عليكمُ القتالُ وهو كُرْهٌ لكم﴾ [البقرة: 216].
- ﴿فإذا انسلخَ الأشهُرُ الحُرُمُ فاقتُلوا المشركين حيث وجدتُموهم﴾ [التوبة: 5].
- ﴿قاتِلوا الذين لا يُؤْمنون باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ﴾ [التوبة: 29].
- ﴿وقاتلوا المشركين كافّةً﴾ [التوبة: 36].
- ﴿ياأيّها النبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمنافقين واغلُظْ عليهِمْ﴾ [التوبة: 73، والتحريم: 9].

مع الأخذ بالحسبان، طبعاً، السياقُ الذي جاءت به هذه الآيات، والمناسبات التي أُنزلت فيها، والبيئة التاريخيّة والثقافيّة والسياسيّة التي أحاطت بنزولها، فهذا كلّه يحدّد لنا معالم فهمها، وظروف تطبيقها أو تعليقها على مدار العصور، وينجو بنا من التأويلات الغريبة والمنحرفة التي بدأت تأخذ بها بعض الاتجاهات المتطرّفة في العقود الأخيرة.

وهذا يسري على أحكامٍ قرآنيّةٍ عديدةٍ أخرى. فتحريم الخمرة، كما هو معروف، لم يتمّ فجأةً، ولكنّه جاء على مراحل عدّة. يقول ابن جُبَير في (الخلاصة):

"لمّا نَزلت ﴿قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومنافعُ للناس﴾ [البقرة: 219] كَرِهَ الخمرَ قومٌ للإثم، وشربها قومٌ للمنافع، حتّى نزل: ﴿لا تقربوا الصلاةَ وأنتم سُكارى﴾ [النساء: 43] فتركوها عند الصلاة، حتّى نزلت: ﴿فاجتنبوه لعلّكم تُفلِحون﴾ [المائدة: 90] فحُرِّمَت. فهذا يدلّ على أنّ آية البقرة منسوخةٌ بآية المائدة، والمائدة نزلت بعد البقرة بلا شكّ"(18).

وقد نجد غرابةً في مضمون الآية الثانية وهي تجمع بين السُكْرِ والصلاة، فكيف يصلّي من اعتاد أن يشرب الخمرة؟! من أجل هذا صنّفوها، والآيةَ التي سبقتْها، بين المنسوخ من الآيات حين نزلت آيةُ المائدة التي حَرّمت الخمرة تحريماً قاطعاً. ولكن هل يتطلّب نزولُ آية المائدة حقّاً إبطالَ الآيتين اللتين سبقتاها في النزول إبطالاً أبديّاً؟

إنّنا نفترض في المصلّي تجنُّب الحرام، ولكن أيّ المصلّين يتجنّب كلّ أنواع المحرّمات؟ أوَلا يحدث أن ينزلق أحد المصلّين مع إغراءات الشيطان فيشربَ الخمرة، أو أن يتذكّرَ شاربُ الخمرة ربّه بين آنٍ وآخر فيُهرع إلى المسجد باكياً مستغفراً؟ هنا تأتي الآية لتذكّره بأنّ عليه أن يصحو من سُكره قبل أن يبدأ صلاته والوقوف بين يدي الله، حتّى يعلم ما يقول، وكأنّ تحريم

(18) القيسيّ، أبو محمّد مكّيّ بن أبي طالب. **الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه**. تحقيق: أحمد حسن فرحات. جدّة ومكّة: دار المنارة، 1986، ص: 167-168.

الخمرة على مراحل ثلاثٍ جاء لحكمةٍ إلهيّةٍ تدرك تمام الإدراك أن سيكون من المسلمين دائماً، فيما مضى وفيما يأتي من الزمان، من يشرب الخمرة ويصلّي في وقتٍ معاً، فلا نسخ إذن، ولا إبطال لمعنى أيٍّ من الآيات الثلاث.

وهكذا اقتضت الحكمة الإلهيّة أن تتنزّل آياتٌ في أحوالٍ وأحداثٍ ظنّها بعض الناس مؤقّتةً وطارئةً ولن تتكرّر، فنسخوا العمل بها، ولم يدركوا أنّ كلّ ما تنزّل من السماء فضمَّه كتابُ الله تعالى سيظلّ منفتحاً لكلّ العصور، وأنّ التاريخ يعيد نفسه باستمرار، وأنّ الظروف والأحداث التي شهدها فجر الإسلام يمكن أن تتجدّد على امتداد الزمن مرّةً بعد مَرّة.

obeikan.com